العالم علما ميكانيكيا متحققا بالفعل – والنتيجة الثانية : أن عمل بيكون على اعداد المدرسة العلمية الانجليزية التى اتخذت من التجربة المعلم الأول فى مجال الطبيعة (١) .

الملاحظة الثانية : أن بيكون فى نظرية الاوهام قد خلط بين أوهام الكهف وأوهام المسرح حيث إنه أدخل فى كل منهما المطالعة والتقليد والسلطة وكل ما يؤثر فى التكوين الشخصى يقول الأستاذ أوفيدينج " (إن نظرية الأوثان لبيكون ليست إلا طرفا ضئيلا من الفلسفة النقدية أو محاولة لتمييز ما يختص بالمعرفة الشخصية للكائنات الحساسة عما يتعلق بالكون المقام وليست هذه نظرية مبتكرة اذ نحن نعثر عليها واضحة مفصلة عند مونتينى وجاليليو على أننا لا نجد لدى بيكون تلك النظرة العظيمة التى ينظرها جاليليو إلى الكون حين يلح على الاستمساك بالنسبية وعلى ملاحظة المواضع التى يكون فيها الحاكمون على نظام الكون وقت نظرهم اليه وحكمهم عليه . أما بيكون فهو لا يتعدى الجزم بأن الفكر التى نكونها لأنفسنا عن العالم بدون قصد هى فكر زائفة وهى فيما يرى وهم من أوهام الحواس إذا كانت متعارضة مع التعليلات العلمية وفوق ذلك فهو لم يبين لنا فى وضوح كيف يجب على الباحث أن يحرر عقله من جميع الغواش المؤثرة فيه حتى يتمكن من جعله صحيفة بيضاء) (٢)

الملاحظة الثالثة : إن الأوهام عند بيكون مثل الشك عند ديكارت ويصرح بيكون بذلك حيث يقول (فإن مشاكلنا ومصاعبنا ناجمة عن العقائد والاستنتاجات التى تحول بيننا وبين الوصول إلى

---

(١) فلسفة بيكون د/ حبيب الشاروني ص ٥٦ .

(٢) نقلا عن المذاهب الفلسفية العظمى للدكتور : محمد غلاب ص٥٤ البابى الحلبى سنة ١٩٤٨ .

الحقيقة إننا لا نتوصل إلى حقيقة جديدة لاننا نأخذ بعض القضايا أو الآراء الموقرة كقضية مسلم بها ولا نزاع فيها مع أن هذه القضايا أوالآراء عرضة للسؤال والخطأ إننا نأخذها – القضايا المسلم بها – نقطة الابتداء فى البحث ولا نفكر أبدا فى وضع هذه القضايا المسلم بها موضع الفحص والملاحظة والتجربة لأن الانسان عندما يبدأ باليقينيات فإنه سينتهى بالشك ولكنه عندما يبدأ راضيا بالشك فإنه سنتهى باليقينيات) (١).

وإذا كان بيكون قد جعل الشك طريقا للوصول إلى اليقين وهو بعينه مذهب الفيلسوف الفرنسى " ديكارت " فهل معنى هذا أن الشك عندهما واحد أم أن بينهما تباين يصرح الأستاذ ول ديورانت أن الشك عندهما واحد (٢) بينما أن الدكتور حبيب الشارونى يرى أن بينهما خلاف جذرى حيث يقول (إن الأوهام عند بيكون مثل الشك عند ديكارت كلاهما يستبعد من مجاله قضايا الدين لكن ثمة فارقا جذريا بين الاثنين فبينما يضع ديكارت الشك منهجا شخصيا فيبقى بالتالى لاجتهاد الشخص امكان تطبيقه فى المجالات التى استبعدها هو . نجد بيكون حين يعرض أوهام العقل وكذلك

---

(١) نقلا عن قصة الفلسفة للأستاذ ول ديورانت : ص ١٦٧ مكتبة المعارف بيروت ط٦ سنة ١٩٨٨ والغريب فى الأمر أن الاستاذ ول ديورانت يعلق على هذا النص بقوله (هنا ملاحظة تطبع الفلسفة الحديثة وهى جزء من اعلان استقلالها وحتى ديكارت يتحدث عن ضرورة أساليب الشك اللازمة للاتجاه بالفكر اتجاها أمينا : وأقول فى عجالة سريعة أين هذا من منهج المسلمين ولا سيما المعتزلة بل أين هذا من قول الإمام الغزالى (إذ الشكوك هى الموصله إلى الحقائق فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال . ميزان العمل ص ٤٠٩ تحقيق الدكتور / سليمان دنيا دار المعارف سنة ١٩٦٥ م .

(٢) قصة الفلسفة للأستاذ / ول يورانت ص١٦٧ .

حين يمضى إلى تفصيل المنهج الاستقرائى لا يعكس أى نظرة أيستمولوجية ولا يفكر إطلاقا فى المسألة من حيث هى تساؤل عن قيمة المعرفة فالاوهام عند بيكون تدل فحسب على عجز الإنسان أمام الطبيعة وربما يكون هذا الفارق هو أحد العوامل التى تفسر أننا لا نجد فى تاريخ الفلسفة سبينوزا بيكونى بينما نجد فيها سبينوزا ديكارتى . إن العقل عند بيكون إذا ترك يجرى على سليقته انقاد للأوهام لأنها طبيعة فيه أما العقل عند ديكارت فإنه نور فطرى وهو أعدل الأشياء قسمة بين الناس ومن هنا كان بيكون يدعونا للاحتراز من أوهام العقل بينما لا يطلب ديكارت سوى بداهة العقل وليست القضايا الدينية عند بيكون من أوهام العقل لذا يظل التسليم بها من قبل العقل قائما عند بيكون وعند أى بيكونى أما بداهة العقل عند ديكارت فهى نفسها التى أتاحت لسبينوزا إخضاع الكتاب المقدس للنقد التاريخى واشعال الثورة فى الفكر الدينى) (١)

ويقول الدكتور حسن حنفى (سبينوزا هو الديكارتى الوحيد الذى استطاع أن يطبق المنهج الديكارتى تطبيقا جذريا فى المجالات التى استبعدها ديكارت من منهجه خاصة فى مجال الدين وأعنى الكتب المقدسة والكنيسة والعقائد والتاريخ المقدس ... والسياسة فدرس أنظمة الحكم وقارن بينها ونقد الأنظمة التسلطية القائمة على حكم الفرد المطلق وانتهى الى أن النظام الديمقراطى هو أكثر النظم اتفاقا مع العقل ومع الطبيعة (٢) وهذه الأشياء التى درسها اسبينوزا ونقدها هى بعينها المجالات التى نبه عليها ديكارت أنها غير خاضعة لمنهج الشك حيث إنها متميزة بذاتها وهى من الوضوح

---

(١) فلسفة فرنسيس بيكون للدكتور: حبيب الشارونى ص٦١ .

(٢) سبينوزا رسالة فى اللاهوت والسياسة ترجمة وتقديم د/ حسن حنفى مراجعة د/ فؤاد زكريا الهيئة المصرية سنة١٩٧١ حيث وما بعدها .

والجلاء بحيث لا يتطرق الشك اليها على المستوى الفردى لا على مستوى الجماعة .

ب – جانب البناء عند بيكون : –

أما جانب البناء عند بيكون فإنه يتمثل فى الكشف عن المنهج العلمى القويم وتطبيقه واخضاع كل قول مهما كان مصدره للملاحظة والتجربة . فالانسان لن يستطيع أن يفهم الطبيعة ويتصدى لتفسير ظواهرها بالقياس لانه كما يرى بيكون ليس اداة للكشف عن حقائق الكون وانما هو أداة لعرض الحقائق واقناع الخصوم بها وهو أداة تشوبها عيوب عديدة كذلك لن يكون تفسير الطبيعة عن طريق الاستقراء الأرسطى لان هذا الاستقراء يرد فى النهاية إلى قياس تكون مقدمته الكبرى نتيجة لعملية إحصاء يقوم على الأمثلة الايجابية وحدها وهو لا يعطينا اليقين فالانسان لن يستطيع أن يفهم الطبيعة ويتصدى لتفسير ظواهرها ولا يكون ذلك إلا بالسيادة عليها باستكشاف صور الكيفيات ولا سبيل إلى هذا الاستكشاف إلا بالتوجيه إلى الطبيعة ذاتها وملاحظة احداثها بحواسه وفكره .

وليس المنهج عند بيكون هدفا فى حد ذاته ولكنه وسيلة للوصول إلى المعرفة العلمية الصحيحة إنه كما يقول بيكون (بمثابة من يقوم باشعال الشمعة أولا ثم بضوء هذه الشمعة ينكشف لنا الطريق الذى علينا أن نسلكه حتى النهاية) (١)

يقول بيكون فى مفتتح الأورجانون الجديد (إن الإنسان من حيث هو خادم للطبيعة ومفسر لها يعمل فى نظام الطبيعة ويدركه بقدر ما تتيح له ملاحظاته من هذا النظام سواء فيما يتعلق

---

(١) قصة الفلسفة للأستاذ ديورانت ص ١٦٨ .

بالأشياء أو بالعقل وهو لا يعلم ولا يستطيع شيئا اكثر من ذلك فيما يتعلق بالأشياء أو بالعقل وهو لا يعلم ولا يستطيع شيئا أكثر من ذلك وملاحظات الانسان تعرض عليه الكيفية التى يبحث عن صورتها مختلطة بكيفيات أخرى . فكيف استخلاص هذه الصورة مما عداها ؟ لا يتسنى ذلك إلا عن طريق الاستقراء الذى يفصل الطبيعة بسبب عمليات الرفض والاستبعاد الصحيحة ثم نخلص الى النتيجة الايجابية بعد أن يكون قد جمع عددا كافيا من الحالات السالبة) (١) .

ويقوم هذا المنهج على الخطوات التالية : -

الخطوة الأولى : جمع الحقائق ويتمثل ذلك فى جمع كل ما يتعلق بالواقعة (موضوع البحث) من مشاهدات قديمة أو حديثة دون تمييز واجراء التجارب عليها – وهو ما يعرف عند بيكون بالملاحظة والتجربة–

ويرى بيكون أن هناك طرقا معينة لإجراء التجارب تتمثل فى الآتى:

١- تنويع التجربة بتغيير المواد وكمياتها وخصائصها وتغيير العلل الفاعلية

٢ - تكرار التجربة مثل تقطير الكحول الناتج عن تقطير أول .

٣ - مد التجربة – أى إجراء تجربة على مثال تجربة أخرى مع تعديل فى المواد

---

(١) نقلا عن فلسفة بيكون د / حبيب الشاروني ص٧٦ .

٤ - قلب التجربة - مثل الفحص عما إذا كانت البرودة تنتشر من أعلى إلى أسفل بعد أن نكون عرفنا أن الحرارة تنتشر من أسفل إلى أعلى .

٥ - نقل التجربة من الطبيعة إلى الفن أو من فن إلى فن اخر .

٦ - الغاء التجربة - أى طرد الكيفية المراد دراستها .

٧ - تطبيق التجربة - أى استخدام التجارب لاستكشاف خاصية نافعة

٨ - جمع التجارب - أى الزيادة فى فاعلية مادة ما بالجمع بينها وبين فاعلية مادة أخرى

٩ - صرف التجربة - أى أن نجرى التجربة لا لتحقيق فكرة معينة بل لكونها لم تجر بعد ثم ينظر فى النتيجة ماذا تكون ؟

الخطوة الثانية - جداول الاستنتاج : -

فبعد إجراء التجارب يجب توزيعها فى جداول ثلاثة : -

أ- جدول الحضور تسجل فيها الأمثلة المثبتة للظاهرة .

ب-جدول الغياب تسجل فيها الأمثلة النافية للظاهرة .

ت-جدول المقارنة تسجل فيها الأمثلة التى تقوى فيها الظاهرة والأمثلة التى تضعف فيها لاكتشاف السبب الذى تدور معه الظاهرة قوة وضعفا (١)

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة الأستاذ يوسف كرم ص٥٠ الطبعة الرابعة دار المعارف سنة ١٩٦٦ .

الخطوة الثالثة – العزل والإقصاء : -

بعد توزيع التجارب فى القوائم الثلاث سيتبين أن هناك بعض الامثلة لا دخل له فى وجود الظاهرة وعندئذ يقوم بعملية عزل تستبعد فيها الأمثلة التى لا يمكن ان تكون علة للظاهرة حتى ينتهى به الأمر إلى استنتاج العلة الحقيقية التى تدور معها طردا وعكسا فتوجد بوجودها وتنتفى بانتفائها وحينئذاك توضع النتيجة فى صورة حكم كلى مدلل مبرهن عليه بالاستدلال الاستقرائى المرتكز اجالا على هذه القواعد .

أولا : الاعتقاد بأن طبائع الأشياء لا تتغير .

ثانيا : أن العلل المتشابهة تنتج المعلومات المتشابهة .

ثالثا : أن المستقبل يشبه الماضى .

رابعا : أنه لابد من علاقة علية بين الظاهرة وبين شئ أخر هو السبب فى وجودها ويجمع هذه القواعد الأربعة تحت قانونين عامين يطلق على أحدهما اسم " افتراض الاطراد فى وقوع الحوادث الطبيعية " وعلى ثانيهما اسم " قانون العلية " (١)

هذه هى خطوات المنهج العلمى عند بيكون فى جانبه الايجابى ولى عليه عدة ملاحظات .

الملاحظة الأولى : أن بيكون قد وحد بين الملاحظة والتجربة وجمع بينهما فى خطوة واحدة والحقيقة أن هناك فرق كبير بينهما يقول زيمرمان (ان ما نعرفه بالملاحظة يبدوا أنه يظهر

---

(١) تأملات فى الفلسفة الحديثة والمعاصرة للدكتور / محمد عبد الرحمن بيصار ص٤٢، ٤٣ الطبعة الثانية .

طوعا من تلقاء نفسه أما ما نعرفه بالتجربة فهو ثمرة محاولات نقوم بها للتحقق من وجود الشئ أو عدم وجوده) (١)

وبهذا تصبح الملاحظة تسجيل ظواهر بحالتها والتجربة تسجيل ظواهر خلقها المجرب أو حددها : يقول كيفيه (إن من يلاحظ ينصت للطبيعة ومن يجرب يستجوبها ويضطرها إلى الكشف عن نفسها) (٢)

كما أن بيكون جمعه بين الملاحظة والتجربة فى خطوة واحدة وتوحده بينهما خلط بين مناهج البحث فى العلوم الطبيعية فهناك من العلوم ما يقوم على الملاحظة دون التجربة كعلم الفلك مثلا وهناك ما يخضع للملاحظة والتجربة كعلم الكيمياء يقول لا بلاس (على الأرض يكون تغير الظواهر وتنوعها بالتجارب أما فى السماء فإننا نحدد فى عناية كل ما تعرضه علينا الحركات السماوية وفى هذا يختلف عمل الفلكى عن عمل الكيميائى وعالم الطبيعة وان كانت جميع العلوم تشترك فى أنها تنشد العلم بقوانين الظواهر علما يمكن الانسان من التنبؤ بها أو تنويعها أو السيطرة عليها) (٣)

الملاحظة الثانية : أن بيكون كان يعتقد أن مجرد جمع الوقائع والتجارب فى قوائمه الثلاثة كفيل بالوصول إلى القوانين وبذلك يكون بيكون قد أنكر مرحلة تكوين الفروض فى حين أن خطوات المنهج التجريبى الصحيح هى الملاحظة والتجربة ثم تكوين الفروض وتحقيقها عن طريق التجربة أما ما ذكره الدكتور توفيق الطويل والدكتور محمودقاسم فى دفاعهما عن بيكون بأنه لم يهمل

---

(١) نقلا عن أسس الفلسفة للدكتور/ توفيق الطويل ص١٣٦الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٨.

(٢) نقلا عن المرجع السابق ص ١٣٦ .

(٣) نقلا عن المرجع السابق ص ١٣٧ .

الفرض العلمي بصفة عامة بل حارب الغلو فى وضع تلك الفروض التى لا يمكن تمحيصها والتى تشبه الأشباح فى أنها تحجب الحقائق وتشوهها (١) فإن ذلك مردود بما قاله بيكون نفسه حيث يقول (إن الفروض من خلق المخيلة والمخيلة قوة غير محدودة أى يمكن أن تستمر فى خلق الاراء إلى مالانهاية(٢) وكذلك بما قاله كلودبرنارد بأن بيكون لم يكن عالما ولم ينتفع بمنهجه ولم يستطع أن يفهم نظام المنهج التجريبى وسره والدليل على ذلك أن بيكون قد أوصى بالابتعاد عن الفروض والنظريات والتى هى ألزم ما يكون للمنهج التجريبى (٣) ويحلل ول ديورانت ذلك الموقف من بيكون حيث يقول (ومهما يكن من أمر فإن بيكون كان على حذر من الفرضيات حيث كانت فى الكثير الغالب توحى بها التقاليد أو التحيز أو الرغبة أى توحى بها مرة أخرى الأصنام فكان يرتاب فى أى نهج تقليدى تصطفى الفرضية فيه قصدا أو عن غير قصد من التجريب ..)(٤)

الملاحظة الثالثة : أن بيكون باهماله منهج القياس الرياضى والتحديدات الكمية قد قضى عليه بمعاناة تجارب طويلة وعاتيه فوق أنه كان منه موضع نقص شائن وقصور معيب يقول الأستاذ أوفدينج : إن الرسم التفصيلى الذى يصور به بيكون الاستقراء يعتبر خطوة إلى الأمام فى عصره ولكن المرتبة الدنيا التى وضع فيها القياس والتحديدات الكمية من منهجة كانت قمينة – عند لموازنة بينه وبين العلوم الحديثة – بأن تقذف به إلى زوايا

---

(١) أنظر أسس الفلسفة للدكتور توفيق الطويل ص١٣٨ ، المنطق الحديث ومناهج البحث للدكتور محمود قاسم ص ١٦٠ .

(٢) نقلا عن المنهج العلمى عند العرب للدكتور / جلال موسى ص ٤٨ .

(٣) نقلا عن أسس الفلسفة للدكتور / توفيق الطويل ص ١٣٨ .

(٤) قصة الحضارة : ول يورانت المجلد الرابع عشر ص ٢٧، ٢٨ ص ٣٦٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

النسيان أنه لم ير تلك الحقيقة الناصعة وهى أن العلم التجريبى لا يكون ممكنا إلا اذا تحقق قبل وجوده أساس ثابت من القياس الرياضى يجئ عن طريق التقدير الدقيق للأحداث وهو لم يدرك البتة أن القياس هو الذى يقدم إلى الباحث برهان ضبط البحث العقلى الاستقرائى الذى لا يمكنه الاستغناءعنه بحال (١)

الملاحظة الرابعة : وهى تتعلق بغاية بيكون من منهجه فإنه كان يريد أن يصل الى تحديد طبائع الأشياء أو الجوهر الخاص بكل منها ووسيلة هذا عنده هو معرفة الصورة – فالصورة عنده ليست هى المقابلة للمادة أو الهيولى – عند أرسطو وليست هى مثال الشئ عند أفلاطون وليست التى ترتسم فى أذهاننا خطأ عن حقائق الأشياء الموجودة فى العالم الخارجى وانما الصورة عنده هو القانون العام والناموس الطبيعى الذى تسير بمقتضاه الظاهرة ولا يتخلف عنها بحال من الاحوال حيث يقول (صورة الظاهرة هى التى إذا أضيفت اليها أكسبتها ما هيتها واذا ما انتزعت منها تلاشت طبيعتها)(٢) .

ولكن الذى ذهب إليه بيكون فى تحديد معنى الصورة فهو قريب الشبه بمثال أفلاطون وصورة أرسطو إذ بكل منهما تكون حقائق الأشياء، وماهياهات فضلا عن اضطرابه الظاهر فتارة يجزم بأن الصورة هى خاصيات الأشياء وأخرى يعلق أنها هى النواميس التى تحدد النشاط الذى تنحصر فيه طبائع الاحداث (٣) فصورة الحرارة على هذا النحو مثلا تكون هى عين الناموس الذى تتحد

---

(١) نقلا عن المذاهب الفلسفية العظمى للدكتور / محمد غلاب ص ٥٦ ، ٥٧ .

(٢) نقلا عن قصة الفلسفة للأستاذ ول ديورانت ص ١٦٩ .

(٣) أنظر الآلة الجديد لفرنسيس بيكوت ترجمة الدكتور حبيب الشارونى ص١٣٤ .

فيه طبيعة الحرارة ولكى يستطيع المرء ايجاد الحرارة يجب عليه أن يعرف هذا الناموس وهذه الأراء تكاد تكون بعينها أراء الاقدمين وهكذا نرى أن بيكون هنا لا يزال تلميذا للمدرسيين ولأرسطو الذى حاربه بشدة فإن بيكون كما يقول أو فدينج حين يطلق على الروائح والألوان والحرارة والبرودة والثقل والخفة وما اليها إسم بسائط الطبائع أو إسم الصور الأساسية للأشياء يكون خاضعا كل الخضوع لتأثير أراء أهل العصور الوسطى لما كانوا يدعونه بالخصائص الخفية للأشياء (١)

هذا هو المنهج العلمى عند بيكون بجانبيه وتلك هى ملاحظاتى عليه والآن انتقل لبيان المنهج العلمى عند ديكارت والأصول التى يقوم عليها .

ثانيا : معالم المنهج العلمى عند ديكارت : -

يعرف ديكارت المنهج بأنه عبارة عن [القواعد اليقينية البسيطة التى تضمن لمن يراعيها بدقة ألا يفترض الصدق فيما هو كاذب وأن يصل إلى علم صحيح لكل ما يمكن العلم به وذلك بفضل إزدياد مطرد فى ذلك العلم ودون القيام بمجهودات لا جدوى منها](٢)

ويعرفه فى المقال عن المنهج بأنه عبارة عن [القواعد التى تعين الانسان على زيادة علمه تدريجيا والإرتقاء شيئا فشيئا إلى أسمى نقطة يستطيع بلوغها رغم ضعفه وقصر حياته] (٣)

---

(١) نقلا عن المذاهب الفلسفية العظمى للدكتور محمد غلاب ص ٥٨ .

(٢) القواعد لتوجيه العقل لديكارت نقلا عن ديكارت للدكتور / نجيب بلدى : سلسلة نوابغ الفكر الغربى ص٥٩ دار المعارف سنة ١٩٨٧ .

(٣) المقال عن المنهج لديكارت ترجمة الدكتور/ محمود محمد الخضيرى مراجعة الدكتو / محمد مصطفى حلمى ص ١٧٨ وما بعدها نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٥ .

فالمنهج عند ديكارت يبين القواعد العملية التى يجب إتباعها لإقامة العلم ولا يجلل أفعال العقل ولا يدلل على صدقها وموطن الخطأ فيها ويتضح ذلك من قول ديكارت حيث يقول [ليس غرضى أن أعلم المنهج الذى يجب على كل فرد إتباعه لكى يحكم قيادة عقله ولكن غرضى هو أن أبين على أى وجه حاولت أن أقود عقلى] (١)

فالمنهج عنده فن لا علم : والعلم عنده استنباطى بمعنى أنه يضع المبادئ البسيطة الواضحة ويتدرج منها إلى النتائج أما ما كان يجريه ديكارت من التجارب فقد كانت أهمية التجربة مقصورة فى منهجه ومذهبه على إثارة الفكر لمعرفة أى نتائج الاستنباط هى المحققة بالفعل من بين النتائج المختلفة التى يستطيع العقل أن يستنبطها من المبادئ : يقول ول ديورانت عنه[وشرح جنينا ووصفه من الوجهة التشريحية وهو يقول (ديكارت) انه شرح رؤوس حيوانات مختلفة ليتحقق فى أيها تكون الذاكرة والتصور وغيرهما وأجرى التجارب على الفعل اللاإرادى أو المنعكس وشرح الطريقة الميكانيكية ..] (٢)

ويحدد ديكارت طريقتين للوصول إلى اليقين : الأول هو البصيرة والثانى : هو الاستدلال :

أما عن الطريق الأول : البصيرة : فإنه يعنى بها بصيرة العقل ورؤيته لطبيعة الشئ وما هيته وعلامة البصيرة : اليقين : لبساطة موضوعها من جانب : ولصدورها من عقل منتبه خالص غير خاضع لسلطان الحس والخيال من جانب آخر : وعلى ذلك فلا يتضح المنهج إلا بالتهيؤ للبصيرة من ناحية وممارسة البصيرة على خير وجه من ناحية أخرى :

---

(١) المرجع السابق ص ١٦٥ .

(٢) قصة الحضارة للأستاذ ول ديورانت المجلد الخامس عشر حـ٣٠ ص ٣٢٩ .

أما التهيؤ للبصيرة فيتم بعدة شروط منها تجنب السرعة والتهور وتعويد النفس الصبر والأناة فى الأمور العقلية وتحريرها من الاحكام السابقة التى تأصلت فيها منذ زمن بعيد وتصفيتها من أحكام الحس والخيال فيما أمكن معرفته بالعقل وحده :

أما ممارسة البصيرة على خير وجه فيتم بفضل الانتباه ومضاعفته حتى يصبح فى النفس عادة – اثارة الولع بالبسائط – ودعوتها إلى عدم إهمال الأمور الميسورة .

أما عن الطريق الثانى : الاستدلال : فإنه يجب تحويله إلى بصيرة بقدر المستطاع والوقوف فى المعرفة عند البصيرة إذا أمكن .

أما عن طريقة التحويل فهى المراجعة ومعنى ذلك كما يرى ديكارت أنه يجب علينا أن نراجع كل قضية يقينية فى برهاننا وأن نراجع علاقتها اليقينية بسابقتها وبلاحقتها ثم علاقة هذه السابقة أو تلك اللاحقة بغيرها من القضايا اليقينية فى البرهان حتى يصير البرهان وكأنه قضية واحدة لا يشوبه شئ ولا يحتمل خطأ .

أما عن الاستدلالات التى لا يكتفى فيها بالمراجعة وهى الاستدلالات المعقدة فإن ديكارت يرى تحليلها إلى بسائط بصيرية وترتيبها ترتيبا بصيريا حتى نصل إلى تركيبها تركيبا بصيريا ومن هنا كانت طريقة التحليل والترتيب والتركيب هى الطريقة المثلى الموصلة إلى اليقين فى الاستدلال :

يقول ديكارت فى بيان قواعد المنهج :

الأول : ألا أقبل شيئا على أنه حق مالم أعرف يقينا أنه كذلك بمعنى أن أتجنب بعناية التهور والسبق الى الحكم قبل النظر وألا أدخل

فى احكامى إلا ما يتمثل أمام عقلى فى جلاء وتميز بحيث لا يكون لدى أى مجال لوضعه موضع الشك] (١)

وهذا هو الطريق الأول للوصول إلى اليقين عن طريق البصيرة وهو ما يعرف بالجانب السلبى عند ديكارت .

أما عن القاعدة الثانية فإنه يقول فيها [الثانى أن اقسم كل واحدة من المعضلات التى سأختبرها إلى أجزاء على قدر المستطاع على قدر ما تدعو الحاجة إلى حلها على خير الوجوه] (٢)

وهذه القاعدة هى قاعدة التحليل وتعنى أن المعضلة التى نريد دراستها لابد من تحليلها إلى أجزاء بسيطة على قدر ما تدعو الحاجة إلى حلها حتى يتسنى لى ادراك ماهيات أجزائها بالبصيرة .

أما عن القاعدة الثالثة : فإنه يقول فيها [أن أسير بأفكارى بنظام بادئا بأبسط الأمور وأسهلها معرفة كى أتدرج قليلا قليلا حتى أصل إلى معرفة اكثرها ترتيبا بل وأن أفرض ترتيبا بين الأمور التى لا يسبق بعضها الآخر بالطبع] (٣)

وهذه القاعدة هى قاعدة التأليف والتركيب ويعنى بها ديكارت تركيب ما حلله بعد أن أدرك جزئياته ادراكا بصيريا وعند تركيبه لابد من الترتيب بادئا بالأبسط ثم الذى يليه وذلك لمعرفة علاقة كل جزء بسابقه ولاحقه حتى إذا ما انتهى من تركيبه مرتبا كان قد أدركه كله ادراكا بصيريا وعند تركيبه للأمور التى ليس فيها ترتيب طبعى يفترض تركيبا من عند نفسه ليرى نتيجة ذلك التركيب ومن هنا يكون للفرض العلمى مكانته

---

(١) مقال عن المنهج لديكارت ... ص ١٩٠، ١٩١ .

(٢) السابق ص ١٩١ .

(٣) السابق ص ١٩٠، ١٩١ .

أما عن القاعدة الرابعة : فإنه يقول فيها [والأخير أن أعمل فى كل الأحوال من الاحصاءات الكاملة والمراجعات الشاملة ما يجعلنى على ثقة من أننى لم أغفل شيئا] (١)

وهذه القاعدة هى قاعدة الاستقراء التام أو الاحصاء وهى تعنى مراجعة الصلات أو الروابط الموجودة بين الحلقات التى تكون سلسلة الاستدلال فإذا تأكدنا من وثاقة إتصالها جازلنا أن نحكم حكما صحيحا وهذاالحكم بالغا من اليقين ما تبلغه البصيرة ويجب أن تكون عمليه الاحصاء متصله غير منقطعة إذ أننا لو أهملنا حلقة من الحلقات التى تتكون منها سلسلة الاستدلالات لانقطعت السلسلة ولما تبقى شئ من اليقين ثم لابد من التمييز بين حلقات السلسلة حتى لا نكون عرضة لتضليل الذاكرة :

هذه هى معالم المنهج العلمى عند ديكارت وتلك قواعده كما ذكرها ديكارت نفسه فى كتبه ولى عليه عده ملاحظات :

الملاحظة الأولى : أن ديكارت عند تطبيقه لقواعد المنهج نجد فيه تناقصاً واضحاً فينما يؤكد ديكارت فى قاعدته الاولى وهى المسماه بقاعدة اليقين علىألا يقبل شيئا على أنه حق إلا اذا تأكد بالصيرة – أنه حق إذا به يجنح الى التقليد ومتابعة الآباء والسلف فى مجال الأخلاق والدين حيث يقول [الاولى أن أطيع قوانين بلادى وعواندها مع ثبات فى محافظتى على الديانة التى أنعم الله على بأن نشأت فيها منذ طفولتى وأن أحكم نفسى فى كل أمر أخر تبعا لاكثر الآراء اعتدالا وأبعدها عن الافراط والتى أجمع على الرضا بها فى العمل أعقل الذين سأعيش معهم لأننى لما بدأت منذ ذلك الحين

(١) السابق ص ١٩٢ .

لا أقيم لأرائى الخاصة أى اعتبار أيقنت أنه ليس فى استطاعتى أن أعمل خيرا من إتباعى لاراء أعقل الناس] (١)

وقد يكون ذلك التناقض الذى أشرت إليه مخنيا على ديكارت لو أنه أخرج الأخلاق من جملة العلوم التى أشار إلى وضع المنهج لها .

ولكننا نجد أن ديكارت عند تصنيفه للعلوم فى مقدمته لمبادئ الفلسفة جعل الأخلاق فى قمة العلوم وقال انها تستلزم معرفة كاملة للعلوم الأخرى (٢) ولكن إذا علمنا أن ديكارت وغيره من غير المسلمين يفرقون بين العلم والايمان وأن الدين لا علم كما هو رأيهم فلا تناقض أما عن عقيدتنا نحن المسلمين فهناك تناقض لأن العقيدة عندنا مبرهنة .

الملاحظة الثانية : أن ديكارت فى قاعدته – قاعدة اليقين – والتى جعل فيها أن وضوح أية فكرة وجلاءها – ادراكا بصيريا – دليل على صحتها والدليل على ذلك هو أن الأفكار الواضحة جديرة بالثقة لان الله لا يخدعنا ما هو إلا تفكير دائرى فوضوح الفكرة دليل على وجود الله ووجود الله دليل على وضوح الفكرة وعلى أنه لا يخدعنا ما هو الا تفكير فلسفة العصور الوسطى التى دعا ديكارت فى مقاله عن المنهج بنبذها وطرحها (٣)

الملاحظة الثالثة : أن ديكارت فى حديثه عن المنهج يرى أن المعانى الكلية اسماء جوفاء ويستعيض عنها بما يسميه الطبائع

---

(١) مقال عن المنهج لديكارت ص ١٩٨ .

(٢) تعليق المترجم الأستاذ محمود محمد الخضيرى هامش ص ١٩٨ من المرجع السابق وأنظر المفكرون من سقراط إلى سارتر للأستاذ عثمان نوية ص ٤١ الانجلو المصرية سنة ١٩٧٠ .

(٣) قصة الحضارة للأستاذ ول ديورانت المجلد الخامس عشر حـ٣٠ ص ٣٣١ .

البسيطة ويستعيض عن منطق أرسطو بمنهج الرياضيين ويلزم من ذلك أن ليس هناك حقائق ضرورية فينشأ لدينا سبب اخر للشك فى العقل شكا حقيقيا لا منهجيا (١)

الملاحظة الرابعة : أن العناصر التى يطبق عليها ديكارت منهجه أو التى يحللها ثم يؤلفها ثم يراجعها هى المعقولات المحضة إذ أن كل علم عنده يمكن أن يدرك بالفكر المجرد وليست التجارب فيما يرى إلا عوامل تحقق تداعى الافكار او تيسر عملية – البصيرة – ويلزم على هذا كما يقول الأستاذ يوسف كرم فأحال العلم الطبيعى علما رياضيا بحتا وذهب فى ذلك إلى حد افتراضه قوانيين كان يعلم عدم مطابقتها للواقع ولكنه افترضها لكى يمكن أن تقع الأشياء تحت الفحص الرياضى والرياضيات لا تنظر فى غير الاعداد والاشكال حتى إذا رددتا العلم الطبيعى إلى الرياضى رددنا الأجسام الطبيعية إلى أشكال هندسية ورددنا أفعالها إلى حركات الية تقاس ويعبر عنها بأعداد سواء فى ذلك الأفعال الحيوية والأفعال الجمادية على ما بين الطائفتين من تباين فيلزم من ذلك أن الاحساس ذاتى وانه لا شبه بينه وبين علته الخارجية .. وأن تصور الأجسام الخارجية آلات أى مركبات صناعية خلواً من كل طبيعية او ماهية] (٢)

هذه هى أبرز معالم المنهج الديكارتى وتلك هى ملاحظاتى عليه ومعالم المنهج العلمى الاوربى عامة ما هى إلا صورة مشوهة من معالم المنهج الإسلامى ولذلك يحتم على المقام أن اتحدث عن أبرز معالم المنهج العلمى فى الإسلام لنرى التباين الواضح بين النظرتين من جانب وشمول المنهج العلمى الإسلامى لجميع مناحى الفكر والحياة من جانب أخر .

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة للأستاذ يوسف كرم ص ٨٦ الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٦ دار المعارف .

(٢) المرجع السابق ص ٨٥ .

المبحث الثانى

أسس المنهج العلمى فى الإسلام :

ذهب كثير من الباحثين المسلمين المحدثين إلى : قصر المنهج العلمى فى الإسلام على منهج الاستقراء – القائم على الملاحظة والتجربة وفرض الفروض والاستنباط العقلى – ولهثوا خلف علماء عصر النهضة الأوربية على قصر هنا المصطلح على هذا المفهوم شارحين ومفصلين بل ومستدلين على أسبقية علماء الإسلام ومفكريه لاكتساف هذا المنهج وتطبيقه فى مناحى الفكر المختلفة وأن الحضارة الغربية قد استمدت أصول هذا المنهج من الحضارة الإسلامية وانهم طبقوه على أبحاثهم بصورة مشوهة بما دفعهم إلى مناهضة الدين والدعوة إلى الالحاد ونسى هؤلاء والنك أن مفهوم العلم فى الإسلام يختلف عن مفهوم الغرب له .

فالعلم فى الإسلام شامل للعلوم الشرعية والكونية ولقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك حيث قال سبحانه (وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [الاعراف : ٥٢] وقال سبحانه (بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) [يونس – ٣٩] وقال تعالى (وليعلم الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ امَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) [الحج – ٥٤] وقوله سبحانه (قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ) [البقرة – ١٢٠]

كما أشار القران إلى العلوم الكونية فى ايات كثيرة مثل قوله تعالى (وعلم أدم الأسماء كلها) [البقرة : ٣١] وقوله سبحانه (وقدرناه منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) (يونس : ٥) وقوله سبحانه

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) (فاطر : ٢٧، ٢٨) وقوله سبحانه (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نور) (النور : ٤٠)

ففى هذه الأيات وغيرها إشارات إلى علوم الفيزياء الحيوية والزراعة والجيولوجيا والورانة والحيوان والاجناس والبيئة كما ربط القرآن الكريم العلم بالإيمان فى قوله تعالى (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (آل عمران: ١٨) وقوله سبحانه (وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) (سبا: ٦) وقوله تعالى (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ) (العنكبوت : ٤٩) وقوله تعالى (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) (الرعد: ٤٣)

كما ربط القرآن الكريم العلم بالقوة والطاقة الخارقة وأعطى مثالا على ذلك بالذى عنده علم من الكتاب وتقدم لاحضار عرش ملكة سبأ فى لا زمن كما فى قوله تعالى (قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) (النحل :٤٠)

كما أعطانا الله وسائل العلم والتعلم كما فى قوله تعالى (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (النحل :٧٨) كما ربط القرآن العلم بالقراءة والكتابة كما فى قوله تعالى (إقراء باسم ربك الذى خلق) (العلق :١) وقوله (ن والقلم وما يسطرون) (القلم :١)

فلوجئنا نستطلع كلمة العلم ومشتقاته فى القرآن الكريم فضلا عن الحديث النبوى لوجدنا أنها بلغت ثمانمائة واثنين وأربعين مرة (١) بصيغ مختلفة بلغت سبعا وسبعين صيغة موزعة على الأمرين – العلوم الشرعية والكونية (وليس معنى هذا أن القرآن الكريم كتاب فى العلوم كلا ، بل هو دستور أمة وقانون دولة ومعجزة رسالة وحياة بشرية وارشاد عقل فإذا ما أشار القرآن إلى جوانب علمية فإنها إشارات عابرة تريد أن تأخذ بيد الانسان ليرى من أيات ربه الكبرى) (٢) (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) (فصلت : ٥٣)

وعلى هذا فالمنهج العلمى فى الإسلام ليس مقصورا على العلم المادى أو الذى يقبل الخضوع للملاحظة والتجربة بل هو أعم وأشمل من هذا وذاك .

إنه شامل لكل ما ينافى الجهل أو كل ما يمكن تعلمه أو هو صفة توجب محلها تميزا بين المعانى لا يحتمل النقيض أو هو صفة يتحلى بها المذكور لمن قامت هى به : وعلى كل فهو ينافى الظن والجهل لمركب واعتقاد المقلد ... الخ .

---

(١) المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم : محمد فؤاد عبد الباقى ص ٥٧٦ – ٥٩٠ ط أولى سنة ١٩٩٦ .

(٢) تطور الفكر العلمى عند المسلمين للدكتور/ محمدالصادق عفيفى ص ١٣ مكتبة الخانجى بدون تاريخ .

فالمنهج العلمى فى الإسلام هو : مجموعة القواعد والقوانين التى وضعها الإسلام للوصول إلى ما يمكن الوصول إليه من معارف – شرعية كانت أو كونية ، نظرية كانت أو عملية بما يحفظ البشرية ويحقق لها الأمن والاستقرار – فى العاجل والأجل – ويخلع عليها سبل المحبة والخير والتراحم .

فالمنهج العلمى فى الإسلام يشتمل على الآتى : –

١ – إنه عبارة عن قواعد فكرية لا تختلف عليها العقول وقوانين عملية يهتدى الإنسان إلى معرفتها بالبحث والنظر للإفادة منها فى شتى المجالات .

٢ – أن هذا المنهج شامل لجميع أنواع المعارف والعلوم – النظرى منها والعملى ، الكونى منها والشرعى ، التصورى منها والتصديقى ، الفطرى منها والمكتسب .

٣ – أن الهدف من وضع الإسلام لهذه القواعد والقوانين – الوصول إلى الحق والخير : الحق فى الجانب النظرى والخير فى الجانب التطبيقى العملى – حفظ البشرية وتحقيق الأمن والاستقرار – النفسى والاجتماعى – وتحقيق الخير والتراحم بين جميع المخلوقات – ولا سيما الإنسان – الذى هو خليفة الله فى أرضه)

وذلك مثل قانون توافق الحقائق واطراد الفطرة التى يبنى عليهما العلم قوانينه وقواعده : يقول الدكتور الغمراوى [إن العلم فى تطبيقه قوانين التفكير المجموعة فى علم المنطق القياسى يتخذ أصلين إثنين يبنى عليهما : الأول : أنه لا تناقض مطلقا بين الحقائق فليس من الممكن أن ينقض حق حقا فما ينقصن حقا فهو باطل وهذا يصح أن يسمى بأصل توافق الحقائق : والثانى : أصل اطراد

الفطرة واستقلالها فما ثبت أنه صحيح فى وقت ما سيكون دائما حقا أو بعبارة أخرى : أن الحق مستقل عن الزمان والمكان](١)

ثم يبين الأستاذ الغمراوى أن هذين الأصلين قرآنيان حيث يقول وهذان الأصلان اللذان يستمسك العلم بهما هذا الاستمساك هما أصلان قرآنيان .. فأصل إطراد الفطرة ثابت قرآنيا من مثل آية الأحزاب : (سنه الله فى الذين خلو من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) أو آية فاطر : (فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) وآية الروم (فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) فهذه آيات صريحة فى اطراد الفطرة وبقاء سنن الله فيها على مر الزمان كله من غير تحويل ولا تبديل والفطرة وسننها هنا تشمل كل ما وجد فى ملكوت الله سواء فى ذلك ما تعلق بغير الإنسان من جماد ونبات وحيوان أو ما تعلق بالانسان من ناحية النفس والروح فى الفرد والجماعة مما لم يرتق العلم إليه إلى الآن . أما أصل توافق الحقائق أو إستحالة تناقضها فثابت قرآنيا من الآيات السابقة لأن تناقض الحقائق يستلزم تناقض الفطرة ويزداد ثبوتا بقوله تعالى فى سورة الملك (ما ترى فى خلق الرحمان من تفاوت) فإن التناقض لهو أكبر من التفاوت . فإذا انتفى التفاوت فى خلق الله لزم أن ينتفي التناقض فى خلق الله أيضا (من باب أولى) . كذلك أعلن رسول الله (ﷺ) وسلم إستقلال الفطرة عن الانسان وذلك يوم وفاة ابنه ابراهيم وحدوث كسوف الشمس وتحدث الناس أنها كسفت لموت ابراهيم فخاطبهم عليه السلام بقوله (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك

(١) الإسلام فى عصر العلم للأستاذ محمد أحمد الغمراوى ص ١٦٢ الناشر دار الكتب الحديثة سنة ١٩٧٨ .

فادعوا وكبروا وصلوا وتصدقوا) (١) فنستطيع أن نقول : إن القرآن الكريم بهذا كان له فضل السبق فيما ذهب إليه المناطقة : فاطراد الفطرة هو ما ذهب إليه المحدثون فى القول بالطبيعة النوعية الواحدة الذى بنى عليه الاستقراء العلمى لضمان تعميمه بعد استقراء بعض أفراده وأصل توافق الحقائق هو ما ذهب إليه المناطقة كذلك فى القول بمبادئ التفكير المنطقية وكان القرآن بذلك يجمع ما بين الامرين : النظرى والعملى : أو القياسى والاستقرائى معاً : وهذا هو ما ينادى به المناطقة اليوم .

على أن القرآن الكريم مليئ بالقواعد والقوانين والتى لم تكتشف بعد وكلما تقدمت البشرية خطوة فى تقدمها الارتقائى وحضارتها الفكرية وجدت فى هذا الكتاب الكريم جديدا لم يكتشفه أباؤهم وصدق الرسول (ﷺ) حينما قال (إن هذا القرآن لا يخلق على كثرة الرد) بل هو جديد دائما صالح لكل زمان ومكان أينما قلبته وأمعنت النظر والفكر إكتشفت جديدا مما يدل على أنه معجزة الله الخالدة .

وعلى كل فإن المنهج العلمى فى الإسلام يقوم على جانبين : الاول سلبى ، والثانى ايجابى ولا يتضح معالم المنهج العلمى فى الإسلام إلا من خلال هذين الجانبين – لذلك يحتم على المقام بيانهما لنرى من خلالهما أبرز معالم المنهج العلمى فى الإسلام .

أولا : الجانب السلبى : أو جانب الهدم : –

ويراد به [افراغ العقل والقلب عن كل ما من شأنه أن يؤثر فى حيدة النظر والبحث ونزاهته والتجرد للحقيقة تجردا تاما بقدر الوسع البشرى وتعليق المقررات السابقة التى لم تقم على أساس من

(١) المرجع السابق ص ٦٢ ، ٦٣ .

التعقل والوعى والتى لم تصل بعد إلى درجة اليقين والقطع من العلوم والمعارف الظنية والمعتقدات والمذاهب الموروثة من الآباء والأسلاف ومن الاعراف والتقاليد والعادات المأخوذة من البيئات والعامة من الناس أو من الشكوك والظنون والأوهام](١)

ولما كانت المؤثرات فى حيدة النظر والبحث بعضها راجع إلى الانحراف الفكرى عن منهج التفكير السليم وبعضها راجع إلى إنحراف النفس عن منهج الخلق القويم وبعضها راجع إلى ضعف الارادة أمام سلطة سياسية أو اجتماعية أو روحية كان لابد من تجنب هذه الأنواع الثلاثة قبل الدخول فى دائرة البحث .

ولذلك يحتم على المقام توضيحا لهذه الأنواع الثلاثة :

أ -الإنحراف الفكرى عن منهج التفكير السليم:-

إن العلم فى الإسلام يجب أن يسلك إلى داخل النفس من مسالك الطريق المنطقى السليم للمعرفة وأنه لا يصح أن تتحول فكرة ما إلى حقيقة علمية يقينية إلا اذا كان لها شاهد من مسالك الادراك الحسى القاطع أو الاستنتاج العقلى القاطع أو الخبر الصادق القاطع أو الاشراق الروحى القاطع الموافق فى نتائجه العلمية نتائج مسالك الادراك أو الاستنتاج أو الخبر لكن كثيرا من الناس يقبلون فى حياتهم الفكرية أن تتحول أوهامهم أو تخيلاتهم أو ظنونهم إلى حقائق علمية دون أن تمر فى مراحل الطريق المنطقى السليم للمعرفة ودون أن تصل إلى درجة اليقين العلمى .

---

(١) محاضرات فى العقيدة والتوحيد للدكتور / عبد الرحمن محمد المراكبى ص٢٦٢.

ولذلك فإن كثيرا من الاخطاء العلمية راجع إلى هذا النوع من الانحراف الفكرى عن منهج التفكير السليم (١)

١ – الغرور بالنفس والإعجاب بالرأى : -

فالغرور بالنفس والإعجاب بالرأى منزلق كبير من منزلقات الفكر يؤدى إلى القول بأشياء باطلة والتزام ضلالات وانحرافات فكرية ولذلك يحذرنا القرآن من الغرور بالنفس حيث يقول سبحانه متحدثا عن قارون ﴿قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المجرمون﴾ (القصص:٧٨) وقوله سبحانه فى وصيه لقمان لولده ﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (لقمان:١٨) .

٢- ضعف العقل وقبول ما يلقى إليه أو يتخيله من أفكار باطلة: -

وذلك بركونه إلى التقليد أو الحكم بغلبة الظن أو اتباع الهوى ولذلك فإنه يجب على من يسلك طريق البحث أن يتخلى عن هذه الأمور : يقول تعالى فى النهى عن اتباع الهوى﴿ فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا..﴾ النساء:١٣٥) ويقول سبحانه ﴿ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ : الانعام : ٥٦) ويقول سبحانه (وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ الـ : ص : ٢٦) ويقول سبحانه ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ : المؤمنون :٧١) ويقول عز وجل ﴿وان كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم ﴾ (الأنعام : ١١٦)

---

(١) العقيدة الإسلامية وأسسها – عبد الرحمن حسن حبنكه الميدانى ص ٥٨٧ الطبعة السادسة ١٩٩٢ دار القلم دمشق .

فالهوى أساس كثير من الأخطاء وحشد من الانحرافات حتى يغدو الحق باطلا والباطل حقا ، فالمنهج العلمى فى الإسلام يوجب ترك هوى النفس وتوجيه النظر وكذلك يجب ترك الظن فى نطاق العلم وتجنبه حيث تكون الأحكام الصادرة عنه مجانبها الصواب ولذلك نهانا القرآن الكريم عن اتباع الظن حيث يقول سبحانه ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (يونس : ٣٦) ويقول سبحانه ﴿ ان يتبعون إلا الظن وما تهوى الانفس﴾ (النجم ١٣)

ويقول عز من قائل (وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا)(النجم ١٣) كما انه يجب ترك التقليد : وهو اتباع الغير دون معرفة الدليل فيلغى الانسان بذلك عقله ويسد عليه منافذ الادراك ويحيا كالحيوان الذى لا يدرك ولا يعقل : فالعلم لا يأتى عن طريق التقليد للآباء والاسلاف والإصغاء للعادات والتقاليد الموروثه ولذلك نجد القرآن الكريم ينعى على المقلدين ويتوعدهم بسوء العاقبة : حيث يقول سبحانه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ : لقمان : ٢١ ، ٢٢ ﴾ ويتكرر هذا النهى فى مواضع كثيرة منها ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ : المائدة : ١٠٤ ﴾ وفى موضع أخر ﴿وَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ :البقرة : ١٧٠ ﴾

وهكذا يحرر القرآن الكريم العقل من الوقوع فى أسر التقليد وقيود العرف وسلطان العادة والأخذ عن الآباء والأسلاف والسادة والكبراء دون وعى أو عقل وفتح منافذ الادراك للنظر فى الأنفس والآفاق للاهتداء إلى سنن الله فى الكون .

ب – الانحراف النفسى عن منهج الخلق القويم:-

كذلك يوجب المنهج العلمى فى الإسلام أن تتحرر النفس عن رذائل الاخلاق يقول الإمام الغزالى [فالعلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله تعالى وكما لا تصح الصلاة التى هى وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الاحداث والأخباث فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعبادة القلب بالعلم إلابعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف](١)

ويبين الإمام الغزالى أن أمراض النفوس والتى تكون سببا فى عدم تحصيل العلم كثيرة منها: الحسد والكبر والشهوة والحقد والعجب : ولذلك يجب التخلص من هذه الصفات جميعا : ويعتبر الكبر أخطر هذه الأمراض التى يجب التخلى عنها حيث إنه غمط الحق وطمس معالمه وانتحال صور من الباطل يعمل على تزينها وتحسينها بالحجج التافهة التى لا تقوى على النهوض أمام قوة الحق لدى أصحاب العقول السليمة.

وقد بين الله سبحانه وتعالى أن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم لا يدفعهم هذا الانحراف إلا ما فى صدورهم من كبر يصورلهم أنهم فى موقع رفيع لكنهم فى واقع الأمر ليسوا ببالغيه مهما فعلوا حيث يقول سبحانه (إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (غافر : ٥٦) يقول الإمام الرازى عند تفسيره لهذه الآية [إنما يجمعهم على هذا الجدال الباطل كبر فى صدورهم فذلك الكبر هو الذى يحملهم على هذا الجدال

---

(١) احياء علوم الدين للإمام الغزالى جـ١ ص٥٥ مصطفى البانى الحلبى : القاهرة .

الباطل وذلك الكبر هو أنهم لو سلموا بنبوتك لزمهم أن يكونوا تحت يدك وأمرك ونهيك لأن النبوة تحتها كل ملك ورياسة وفى صدورهم كبر لا يرضون أن يكونوا فى خدمتك فهذا هو الذى يحملهم على هذه المجادلة الباطلة والمخاصمات الفاسدة] (١)

كما بين القرآن الكريم فى اكثر من موضع أن الكبر يكون سببا لسد منافذ الادراك مثل قوله تعالى ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ (لقمان:٧) وقوله تعالى ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ (الجاثية :٨) بل إن القرآن الكريم يبين أن الكبر يكون سببا فى المنع من الاستيثاق من الشئ والركون فيه إلى الضلال حيث يقول سبحانه ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ (الاعراف : ١٤٦)

كما أنه يجب التخلى عن الحسد وهو غمط الحق وانكاره والجحود به مهما كان بينا مؤيدا بالحجج والبراهين لوقوفه أمام منافذ الادراك بالمرصاد فحجب عنها نور العلم والهدى ولقد كان الحسد من أكبر العوامل التى جعلت اليهود ينكرون الحق الذى جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ويتمنون أن يعود المؤمنون برسالته إلى ما كانوا عليه أولا قبل الرسالة حيث يقول سبحانه ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ (البقرة : ١٠٩) يقول الإمام الرازى عند تفسيره لهذه الآية [فالمراد أنهم كانوا يريدون رجوع المؤمنين عن الايمان من بعد

(١) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) للإمام فخر الدين الرازى حـ٢٧ ص٦٩ دار الكتب العلمية بيروت .

ما تبين لهم أن الايمان صواب وحق والعالم بأن غيره على حق لا يجوز ان يريد رده عنه إلا بشبهة يلقيها إليه ..] (١)

وليس أمر الحسد وقفا على سد منافذ الادراك بل إنه مفضى إلى العداوة والبغضاء فإن من آذاه إنسان أبغضه قلبه وغضب عليه وذلك الغضب يولد الحقد والحقد يقتضى التشفى والانتقام : كما أنه مفضى إلى التعزز والترفع على الغير واستعماله وحب الرياسة وطلب الجاه وشح النفس والخوف من فوت المقاصد والتعجب (٢) وهذه الآفات كلها تفضى الى التخلف والرجعية والجهل بما تحتويه النفوس.

جـ - ضعف الإرادة : -

إن المنهج العلمى فى الإسلام يقوم على قوة الارادة وشدة العزيمة ولا يبال الباحث بأن يصدح بكلمة الحق ويعلنها مدوية فى جميع الارجاء والا يخشى بطش الرؤساء والساسة ولقد ضرب القران الكريم الامثال لهذا الامر بما فعله الانبياء مع أقوامهم وما فعله العلماء مع أولى الأمر من الرؤساء والحكام وبين الإسلام أن ضعف الارادة يكون أحد العوامل الرئيسية فى سد منافذ الادراك كما يكون سببا فى التخلف والرجعية والجمود أمام سلطة الساسة والرؤساء وهذا الامر هو الذى حدا بفرنسيس بيكون إلى الاحجام عن التصريح بكثير من أرائه الطبيعية والتى تتعارض مع تعاليم الكنيسة كما كان هو السبب الرئيس فى تزلفه إلى الرؤساء كما ان ضعف الارادة سببا رئيسيا فى عدم مواصلة ديكارت كتابة كتابه – العالم – لما رأى بطش القساوسة لمخالفيهم وفرض العقوبات عليهم.

---

(١) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) للإمام الرازى حـ٣ ص ٢٢٠ .

(٢) السابق حـ٣ ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

ولذلك فإن الإسلام يحذرنا من ضعف الارداة ويدعو أتباعه إلى الصدوح بكلمة الحق حيث يقول سبحانه ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (الانبياء : ٥٤) ويقول سبحانه ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (الانعام:٧٤) يقول الإمام الرازى عند تفسيرة لهذه الآية مبينا قوة ارادة ابراهيم عليه السلام [فعند هذا ثبت أن ابراهيم عليه السلام كان من الفتيان لأنه سلم قلبه للعرفان ولسانه للبرهان وبدنه للنيران وولده للقربان وماله للضيفان ..] (١)

فالإسلام جعل قوة الارادة عامل تشييد وبناء كما انه بين أن ضعف الارادة عامل جمود وركود ولذلك فإن الإسلام يدفع أتباعه إلى قوة الارادة وذلك الذى حدا بأصحاب رسول الله إلى مخالفة بعضهم بعضا – عندما أرسلهم الى بنى قريظة وقال لهم لا يصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة – كما كان سببا فى نشأة علم الاجتهاد فى الإسلام .

وعلى كل فالجانب السلبى للمنهج العلمى فى الإسلام لابد وأن يكون شاملا لجوانب الانسان المختلفة والذى يتفق ومفهوم العلم : يقول الإمام بن حزم [ونحن نوصى طالب العلم ألا يذم ما جهل منها فهو دليل على نقصه وقوله بغير معرفة . وألا يعجب بما علم فتطمس فضيلته ويستحق المقت من الواهب له ماوهب . وألا يحسد ما فوقه حسدا يؤدى إلى تنقيصه فهذه رزيلتان وألا يحقر من دونه فقد كان فى مثل حاله قبل أن يعلم ما علم . وألا يكتم علمه

(١) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) للإمام الرازى حـ١٧ ص٢٩

فيحصل هو ومن لا علم له فى منزلة واحدة اذ كلاهما غير مستعمل للعلم ولا مظهر له . وألا يتكلم فى علم قبل أن يحكمه فيخزى – وألا يطلب بعلمه عمل دنياه فيبذل الأفضل بالأدنى وأن يستعمل تقوى الله تعالى فى سره وجهره فهو زين العالم] (١).

هذه هى أهم معالم الجانب السلبى للمنهج العلمى فى الإسلام .

ثانيا : الجانب الايجابى – البناء –

إذا كان المقصود بالجانب السلبى للمنهج العلمى فى الإسلام – افراغ العقل والقلب عن كل ما من شانه أن يؤثر فى حيدة النظر والبحث ونزاهته ... الخ – فإن الجانب الإيجابى يعنى به . توجه العقل والقلب للنظر فى الأنفس والآفاق لاستكناء سنن الله فيه بما يحقق له الأمن فى العاجل والسلامة فى الآجل قدر الطاقة البشرية .

ولما كان كل ما فى الإسلام يبدأ من القران ومن المقرر أن هذا الكتاب الخالد قد زود المسلمين بمنهج علمى يعتمد على مشاهدة الحس وبداهة العقل ويتميز بالبساطة والوضوح ويتجه إلى منفعة الانسان فى دينه ودنياه .

تلك هى خطوات المنهج القرآنى بصفه عامة أما تفصيلاته فإنها تتنوع بتنوع المجالات التى يتعرض لها الانسان .

ففى مجال الأمور الغيبية التى تتجاوز نطاق العقل البشرى – بحكم طبيعتها من ناحية وضعف قدرته من ناحية أخرى – هناك منهج الاتباع ولا ينبغى أن يتصور أحد أن الاتباع فى أمور الغيب لا يستند إلى أساس عقلى . فإن الاتباع لا يتم إلا بعد أن يتثبت الانسان

---

(١) مراتب العلوم للإمام بن حزم ضمن رسائل بن حزم تحقيق الدكتور إحسان عباس حـ٤ ص ٧٨ ط أولى سنة ١٩٨٣ المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

من صدق الرسول الذى يقود خطاه فى ذلك الميدان الشاسع ويكون ذلك بطريقين : المعجزة، العصمة .

وفى مجال العقيدة يوجد منهج الاستقراء الحسى القائم على الملاحظة والمواجهة المباشرة فى الظواهر والاستدلال العقلى القادر على اقناع الكافة . لاثبات وجود الله ، وحدانيته ، وكذلك اثبات البعث والثواب والعقاب .

وفى مجال الشريعة هناك منهج الاستنباط القائم على استخراج الاحكام الفرعية لكل ما يتعرض له الانسان فى حياته اليومية من أصول الشريعة الأساسية وفى مجال المعاملات هناك منهج الاثبات والإشهاد وتسجيل العقود عن طريق الكتابة .

وفى مجال الاخبار المنقولة هناك منهج التثبيت والتحرى والتمحيص والبحث عن حال الناقلين للأخبار .

وهكذا تتنوع المناهج القرآنية بتنوع المجالات ولقد استوعب المسلمون الأوائل جيدا هذه المناهج وقاموا بتطبيقها على نحو يدعوا للاعجاب فى مختلف المجالات (١) .

والذى يعنينا الآن بيان الخطوات التى يقوم عليها الجانب الايجابى للمنهج العلمى وتتمثل هذه الخطوات فيما يلى : -

الخطوة الأولى : موضوع البحث : -

ويعنى بهذه الخطوة أن المنهج العلمى فى الإسلام يتطلب أولا وجود الأمر المحدد الذى يدور حوله البحث وذلك كمسألة وجود الله أو

---

(١) وسوف أبين ذلك فى المبحث الثالث من هذا البحث .